على ما سيكون من انتقام في قابل الأيام!

كان البلاء الأول الذي على موكب «ماني» مواجهته هو القُرّ. وكان الزمان آخر الخريف. وقد ظلّت الأيام ناعمة ما دام المرء في سهول (ما بين النهرين)، ولكن ما إن يأخذ في طريق الجبل حتى تمسّ الحاجة إلى ارتداء الملابس السميكة. وعلى بُعد ستة فراسخ من (أيكبتان) صودفت رقاع الأرض المفروشة بالثلج الذي أقبل سكان الأراضي السبخة يجسّونه جَذِلين.

لم يكن الموكب لحسن الحظّ يشبه قطّ «جحفل المتسوِّلين» الذي كان يحلو للكهنة الهزء به. فقد كان بين الأتباع في الواقع بعض التجّار الموسرين الذين أوجبوا على أنفسهم كسوة المُعْدِمين وإنعالهم وإطعامهم. ولم يكن أحد هؤلاء الموسرين غير «مالكوس» الذي كان ما إنْ يحتدمُ النقاش في الدين حتى يجد على الدوام ما يشغل به نفسه في مكان آخر، صوب المطايا بوجه عام، إذ كان قد ألزم نفسه بتجنيب «ماني» جميع الهموم الدنيوية. ولمّا كان خبيراً بالقوافل فقد تكشّف عن واحد من أفعل مُنظِّميها. حتى لقد كان بالإمكان رؤية معاطف وأغطية صوفية مكوَّمة على ظهور البغال ومحفوظة لأوقاتٍ أشدَّ وطأةً. وما كانت لتكون فائضة عن الحاجة، وهذا ما كان يشير إليه عند مدخل (أيكبتان) أسد ضخم في أعلى لبدته خصلة بيضاء منمنمة ولكنّها مُذِلّة لأشهر تمثال في «الإمبراطورية»، وقد نُحت بالضبط ليكون بمثابة طلسم لحماية المدينة من انهمار الثلج.

كانت شوارع (أيكبتان) خالية عند وصول «ماني». أو هي بدت كذلك. فقد كانت ريح الصباح قد هدأت؛ وكادت الشمس في كبد السماء تكون محجوبة، وكانت أشعّتها الفتيّة منهمكة في تعديل الجو وتدفئته. واجتاز الموكب شارعاً محفوفاً بالدكاكين التي كانت جميعها مقفلة. مع أن الوقت لم يكن وقت غداء ولا وقت قيلولة. فأية لحظة غير هذه يمكن أن يختارها الأهالي للعمل والتنزّه والقيام بمشترى ما يحتاجون إليه؟.